2008 «جردة» لعام عربي أسود وليس كالحاً

د. شاكر النابلسي*

لنِ أكون متشائماً كبقية بعض الكتاب العرب، وأقول إن عامِ 2008 كان عاما أسود كالحا على العرب، لأنهم لم يحققوا القضاء على الفقر، والقضاء على البطالة، ولم يصلحوا من تعليمهم، ولم يتقدموا باقتصادهم. فرغم أن حال العرب في 2008 لم يسُرَّ صديقاً ولا عدواً، فإن الأمل يحدونا بأن نتقدم، ونرقى، ولو درجة واحدة في سلم الحضارة والتقدم، فهل كان عام 2008 العربي عاماً أسود كالحاً؟

في حقيقة الأمر كان عام 2008 أسود، ولكنه لم يكن كالحاً. ولنا العزاء في أن هذا السواد قد شمل الكرة الأرضية كلها في شهري نوفمبر وديسمبر من عام 2008 نتيجة للأزمة المالية العالمية، التي شملت معظم أنحاء العالم تقريباً، وجعلت البشرية كلها تفكر في كيفية النوم بالعراء غداً، وبكيفية التعوّد على أكل الأعشاب وأوراق الشجر، ومخلفات الآخرين. وصار حالنا كحال من يقول: «الموت مع الجماعة رحمة».

فدعونا نقرأ ماذا حقق العرب من نجاحات وأرباح، أو خيبات وخسائر على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية.

كشف حساب السياسة العربية

حقق العرب على المستوى السياسي عدة نجاحات، كان أبرزها «مؤتمر الدوحة» الذي تمت فيه المصالحة اللبنانية، وانتخاب رئيس الجمهورية، وتشكيل حكومة وحدة وطنية، وإعادة فتح البرلمان اللبناني، وممارسة الحياة النيابية من جديد. وتنفّس العرب جميعاً الصعداء لهذه المصالحة. فالعالم العربي لا ينهمك في اضطرابات وقلاقل دولة عربية، كما ينهمك في الشأن اللبناني، الذي كان محطَّ أنظار العرب حكوماتٍ وشعوباً. ويخيّل إليَّ، أن لبنان هو «الطفل المدلل» عند العرب جميعاً، والذي يخشى عليه كل العرب، ويحاولون بكل جهودهم، إبعاد نار الخلافات العربية عن ثيابه وبيته.

وفي الشأن اللبناني أيضاً، نجح الذكاء السياسي السوري الخارق، في العودة إلى لبنان في نهاية عام 2008 بأقوى مما كان عليه قبل عام 2005. فنشر عشرة آلاف جندي على الحدود السورية- اللبنانية بحجة منع التهريب، وقرر التمثيل الدبلوماسي مع لبنان، وفتح سفارة في بيروت، وأخرى لبنانية في دمشق، وقام الرئيس اللبناني ميشيل سليمان بزيارة إلى سورية، واستقبلت سورية مجموعات من السياسيين اللبنانيين، وعلى رأسهم خصمهم العنيد السابق ميشيل عون. ولكن بقي في لبنان الهمّ الأكبر والعقبة الكأداء، وهي سلاح «حزب الله»، الذي يتعاظم كمّه وكيفه كل يوم، ويتضخم ككرة الثلج المتدحرجة من أعلى الجبل. وهذا الحزب يشكل مصدر قلق وخوف دائم للبنانيين المعارضين لسورية ونظام الحكم فيها. بل هو الدُمل الإيراني- السوري، الذي يكبر كل يوم في الجسم اللبناني.

ثلاث خطوات سياسية سعودية مهمة

وفي هذا العام، خطت السعودية ثلاث خطوات مهمة وجريئة، نحو طريق التسامح الديني، والحوار بين الأديان، والحضارات. فقام الملك عبد الله بن عبد العزيز لأول مرة في تاريخ السعودية، بزيارة الفاتيكان، والاجتماع مع البابا بينديكت السادس عشر من أجل إقامة فضاء تسامحي عالمي. ثم رعت السعودية «مؤتمر حوار الأديان» في مدريد، بعيداً عن التطرف والتشدد، وبحضور أكثر من 200 شخصية سياسية ودينية من مختلف الأديان السماوية والأرضية. ورغم أن مؤتمر مدريد المفيد، بادرة تاريخية واضحة، فإن التواضع في هذا المقام، يقودنا إلى القول إن ما سيتم في مدريد، هو استمرار لما تمَّ في عهد المسلمين، طوال ثمانية قرون في الأندلس، من تعايش، وتسامح، وعدالة، بين جميع الديانات والأعراق. وقبسات سريعة لحال اليهود -مثلاً- في تلك الفترة، كافية لأن تعطينا فكرة واضحة عما كان أجدادنا الأوائل يعاملون ويتعاملون مع الآخر. ونحن انتقينا اليهود هنا، لأن ما حصل من فريق منهم في فلسطين، بقيادة الصهيونية السياسية، كان «مربط الفرس»، ولُبّ الصراع، والعداء القائم الآن، بين متطرفينا ومتشددينا وبين الصهيونية السياسية، وكذلك بين الساسة العرب والسياسة الغربية الداعمة للصهيونية السياسية. في حين أن علاقتنا بالآخر -مهما كان هذا الآخر- ظلت سمناً على عسل في الأندلس، وبعد الأندلس، إلى أن ظهرت الصهيونية السياسية، وفعلت ما فعلته في فلسطين بتأييد ودعم غربي من السياسة الغربية، التي رأت مصلحة لها في هذا الدعم، وفي هذا التأييد. ولم نستطع نحن حتى الآن، أن نجعل للغرب مصلحة في دعم الحقوق المشروعة للفلسطينيين في وطنهم، وظلّ خطابنا السياسي في هذا الشأن، عاطفياً ونزقاً وعنيفاً.

خيباتنا السياسية وخسائرنا كثيرة وجسيمة منها على سبيل المثال ما يتم في غزة

أهمية لغة الحوار

لغة الحوار، هي لغة الحضارة، والفكر الرشيد. وفي فجر التاريخ، ارتقى الإغريق إلى تلك الدرجة من الرقي السياسي والفكري والثقافي بفضل لغة الحوار، وحرية هذا الحوار. ففي البيت، وفي الشارع، وفي المدرسة، كانت لغة الحوار هي السائدة، والتي استطاعت أن تنتج هذا الكم الهائل من الفكر، والفلسفة، والعلم، والثقافة، التي ما زلنا نحفل بها إلى الآن. ولعل «محاورات سقراط» التي كان يقيمها في الشارع مع الشباب، والتي جمعها تلميذه أفلاطون، كانت البرهان الكبير على رقي أمة، كالأمة اليونانية في تلك العصور، بفضل لغة الحوار.

وفي تراثنا العربي والإسلامي، هناك أمر إلهي صارم، بضرورة الحوار والجدل بالحُسنى. ولكننا تركنا -من ضمن الكثير الذي تركناه وأهملناه- لغة الحوار، ولجأنا إلى لغة السيف في الحقب الأخيرة. وعكفنا منذ الثمانينيات إلى الآن، على سماع قرقعة السيوف بدلاً من الحوار، والجدل بالحُسنى. فقد غابت هذه الثقافة -ثقافة الحوار- من الفضاء العربي والإسلامي.

حقَّق العرب على المستوى السياسي عدة نجاحات أبرزها «مؤتمر الدوحة» الذي تمَّت فيه المصالحة اللبنانية

ثقافة السلام وحوار الأديان

وفي ندوة «ثقافة السلام» وحوار الأديان، الذي انعقد في نوفمبر 2008، في نيويورك، وفي رحاب الشرعية الدولية والأمم المتحدة، وأمام أنظار العالم كله، خطونا خطوة سياسية عقلانية بامتياز، ودعونا -بعد أن أنهكت الحروب الشرق الأوسط، طوال قرابة قرن مضى- إلى نشر «ثقافة السلام»، وبدء حوار الأديان، لعلمنا أن الصراع القائم في العالم وبين العرب وإسرائيل خاصة، قد تحول من صراع سياسي إلى صراع ديني. فلو كانت المشكلة الفلسطينية والصراع العربي- الإسرائيلي على أرض غير فلسطين -باعتبارها مهبط الديانة اليهودية والمسيحية، ولها من تاريخ الإسلام نصيب كبير وقدر عظيم- لما كان النزاع العربي- الإسرائيلي بهذه الشدة، وهذا التعصب، وبهذا الامتداد الزمني، الذي كاد يصل إلى قرن من الزمان، حيث بدأ في الثلاثينيات من القرن الماضي، وما زال مستمراً حتى الآن. وفي عام 2008 حقق العراق خطوة كبيرة نحو الاستقرار ودعم الحرية والديمقراطية بتوقيعه الاتفاقية الأمنية العراقية- الأميركية، التي تعطي كل فريق من الفريقين حقه، وتشرح له دوره، باعتبار أن أميركا التي قلعت بأيديها معظم أشواك العراق، شريك رئيسي في مرحلة ما بعد قلع الأشواك.

خيبات سياسية في 2008

أما خيباتنا السياسية وخسائرنا في هذا المجال، فهي كثيرة وجسيمة منها على سبيل المثال ما يتم في قطاع غزة. فالعالم كله شرقه وغربه، يمينه ويساره، عربه وعجمه غير راض عن «حماس» في قطاع غزة، ولذا، لم يمد أحد يد العون إلى سكان قطاع غزة، الذين يعانون المجاعة والبطالة والمرض. وحجة العالم في ذلك، أنه إذا ساعد هؤلاء، فكأنه يقبل ويرحب بحكم «حماس» لقطاع غزة. لذا، فإن «حماس» هي السبب الرئيسي في هذه الكوارث في قطاع غزة. والفلسطينيون يصيحون ويبكون، ويستنجدون على شاشات التلفزيونات العربية والغربية، ولكن قلة قليلة من المعلقين هي التي تقول لهم، اذهبوا إلى حكومة «حماس» السينمائية، من أجل أن تساعدكم برحيلها، وتُنهي هذا الفيلم الكرتوني السخيف. فأهالي قطاع غزة، لم يعانوا الجوع والفقر والبطالة والمرض، أثناء الاحتلال البريطاني والإسرائيلي السابقين، مثل معاناتهم الآن. وكأن «حماس» من حيث تدري أو لا تدري كانت أقسى وأشد وطأة عليهم من الاحتلالين السابقين.

وبين هذا وذاك، تتفتّت خارطة فلسطين، ويصبح قيام الدولة الفلسطينية من المعجزات المستحيلات، في ظل التعنّت الإسرائيلي، والتمزّق السياسي الفلسطيني، الذي لم يشهد مثيلاً له تاريخ فلسطين الممتد. وأصبح الفلسطينيون يبحثون عن لقمة الخبز، قبل البحث عن الدولة الفلسطينية. وأصبحت غاية الفلسطيني أن ينام في بيته وبين عائلته آمناً شبعان، لا أن يناضل، ويطالب بحقوقه السياسية والاجتماعية.

وكانت الخيبة السياسية الأخرى، تتمثل في مؤتمر القمة، الذي عُقد في دمشق في 2008/3/29، وتخلّف عنه عدة رؤساء دول، نتيجة لخصومة هؤلاء مع النظام السوري، ولم يتبنَ هذا المؤتمر أية خطوات مهمة. وخرج القذافي من المؤتمر يقول: «قمة دمشق لم تؤدِ أية نتائج، شأنها شأن القمم العربية الأخرى». ولكن دمشق بهذه القمة، كانت قد بدأت تفكّ الحصار الإقليمي والأوروبي عنها، بكل ذكاء، وبكل مهارة سياسية عُرفت بها.

ختمنا عام 2008 بالحزن والألم نتيجة للأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية المؤلمة

حصاد «اقتصاد الكازينو»

أبرز ما كان في الحصاد الاقتصادي عام 2008 هذه الخسائر المتتابعة للبورصات العربية، وخاصة الخليجية. فمن المعروف أن قنوات الاستثمار في العالم العربي وفي بلدان الخليج خاصة محدودة جداً، في الوقت الذي شهد فيه العالم العربي وخاصة بلدان الخليج، تدفقاً مالياً هائلاً، نتيجة لارتفاع أسعار البترول التي وصلت في منتصف عام 2008 إلى أرقام قياسية غير مسبوقة. ولم يكن أمام هذه الأموال الطائلة من قنوات استثمارية غير قناتين رئيسيتين: القناة العقارية، وقناة البورصة. فدخل في الاستثمار، في هاتين القناتين من يعلم ومن لا يعلم، والخبير والغشيم. وتضخمت هاتان القناتان بشكل غير مسبوق نتيجة لحجم الأموال الهائل الذي ضُخَّ فيها. وكانت الخسائر الضخمة تتحقق في هذه البورصات من حين لآخر. وكان صغار المستثمرين المضاربين يخسرون مبالغ طائلة، وكأنهم يلعبون بالمال في الكازينو. وقد سبق للاقتصادي البريطاني الشهير اللورد كينز (1883-1946) أن أطلق على الاقتصاد الذي يقوم على المضاربات المالية والعقارية، التي تطفو كفقاعات بـ«اقتصاد الكازينو».

وزاد الطين بلّة الانهيارات المالية الأميركية، التي شملت المؤسسات المالية الأميركية الكبيرة، والتي انهارت على أثرها البورصات العالمية، وعدد من البنوك الأجنبية، وكان لها تأثيرها الواضح على الاقتصاد العربي والخليجي خاصة. وقد كان هذا التأثير واضحاً عندما انخفضت أسعار البترول بشكل سريع، ووصلت إلى ربع السعر، الذي كان سائداً في مطلع 2008، نتيجة للكساد العالمي. وبنت بعض دول الخليج ميزانيتها على أساس استمرار ارتفاع أسعار البترول، مما سبب لها ارباكات مالية. وزادت معدلات البطالة في البلدان العربية الفقيرة، مع انسداد آفاق الهجرة إلى الغرب، نتيجة للكساد الاقتصادي. كما زادت معدلات الهجرة الداخلية لاسيما من لبنان ومصر إلى دول الخليج، بحثاً عن مصادر الرزق.

أرقام مخجلة في الحصاد الثقافي

كما في كل عام، صدرت مجموعات روائية وشعرية وبحوث، ولكن اللافت للنظر أن الرقابة على الكتاب العربي بشتى أنواعه ظلت قائمة، وإن كانت بعض دول الخليج كالسعودية قد خففت الرقابة، والكتاب الذي كان بالأمس ممنوعاً بات مسموحاً، وتوالت معارض الكتاب في معظم الدول العربية، ولكن المبيعات ظلت أقل من السنوات الماضية، نتيجة لارتفاع أسعار الكتب وتكاليف طباعتها، ونتيجة للضائقة المالية العربية خصوصاً في الدول غير المنتجة للبترول. ورغم هذا كله، فقد صدرت في العالم العربي صحف جديدة، وأُطلقت فضائيات جديدة متخصصة، وشبه متخصصة. وعلى أثر صدور «تقرير التنمية الثقافية» الذي أعدته «مؤسسة الفكر العربي» في مؤتمرها السابع في القاهرة، في منتصف شهر نوفمبر، شعر كل من قرأ هذا التقرير بالإحباط الكبير، تجاه الأرقام المخزية، للتنمية الثقافية العربية التي جاء بها هذا التقرير. وكما هو الحال في تقارير التنمية البشرية، التي تصدر سنوياً عن الأمم المتحدة، وكما هو الحال في تقرير البنك الدولي، الذي صدر عام 2007 عن التعليم العربي، والذي قال إن مستوى التعليم في العالم العربي متخلفٌ بالمقارنة بالمناطق الأخرى في العالم، ويحتاج إلى إصلاحات عاجلة، لمواجهة مشكلة البطالة وغيرها من التحديات الاقتصادية الناتجة عن تدني مستوى التعليم.

أما تقرير «مؤسسة الفكر العربي» فهو يزودنا بحقائق وأرقام محددة، تزيد من ألمنا وحسرتنا على أنفسنا، فيقول مُشخّصاً أمراضنا التعليمية، إن معدل الالتحاق بالتعليم في الدول العربية لا يتجاوز 21.8 في المئة، بينما يصل في كوريا الجنوبية إلى 91 في المئة وأستراليا 72 في المئة وإسرائيل 85 في المئة. ويبلغ أعلى معدل لالتحاق الإناث بالتعليم في الإمارات 76 في المئة، والبحرين 68 في المئة، ولبنان 62 في المئة، بينما في مصر 45 في المئة، والسعودية 49 في المئة، اليمن 25 في المئة. وفي مجال التأليف والنشر، تضمن التقرير تحليلاً، استند إلى قاعدة بيانات ضخمة، قام بإعدادها فريق بحثي عن إجمالي الكتب التي نُشرت في العالم العربي، في عام 2007، وبلغت 27809 كتب، ولا تمثل الكتب المنشورة في العلوم والمعارف المختلفة من هذا الرقم سوى 15 في المئة، بينما تصل نسبة الكتب المنشورة في الأدب والأديان والإنسانيات إلى 65 في المئة. وهناك كتاب يصدر لكل 12 ألف مواطن عربي، بينما هناك كتاب لكل 500 إنكليزي، ولكل 900 ألماني، أي أن معدل القراءة في العالم العربي لا يتجاوز 4 في المئة من معدل القراءة في إنكلترا.

وهكذا ختمنا نحن العرب عام 2008 بالحزن والألم نتيجة لهذه الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية المؤلمة والتي لا تسرُّ صديقاً ولا عدواً. آملين -كما في كل عام- أن يكون عامنا المقبل أفضل قليلاً.

* كاتب أردني

صورة جماعية للقادة العرب الذين شاركوا في القمة العربية في دمشق في 29 مارس الماضي (أرشيف)

الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون والعاهل السعودي عبد الله بن عبد العزيز خلال حوار الثقافات والأديان في نيويورك في 11نوفمبر الماضي (أرشيف)

أبرز مراحل إعادة السيادة إلى العراق

يبدأ العراق في مستهل عام 2009، بعد انتهاء تفويض مجلس الأمن الدولي التابع للامم المتحدة لقوات «التحالف»، فصلاً جديداً في استعادة السيادة والتحكم في مستقبله.

وفي ما يلي ابرز المحطات في عملية استعادة السيادة للسلطات العراقية الجديدة.

2003

- الأول من مايو: بعد ستة أسابيع من الاجتياح، الرئيس الاميركي جورج بوش يعلن نهاية المعارك الرئيسية في العراق ومواصلة «الحرب على الإرهاب».

- السادس من يوليو: الحاكم الاداري الاميركي في العراق بول بريمر يقر إنشاء «مجلس حكم مؤقت»، يتمتع بسلطات تنفيذية لكنه يحتفظ لنفسه بحق «الفيتو».

- الثامن من أغسطس: تأسيس الجيش الجديد.

- 14 أغسطس: صدور القرار رقم 1500 عن الامم المتحدة يؤيد انشاء مجلس حكم مؤقت.

- الاول من سبتمبر: مجلس الحكم يعيّن أول حكومة منذ سقوط النظام السابق مكونة من 25 وزيراً من دون رئيس للوزراء.

- 15 أكتوبر: وضع الدينار الجديد في التداول.

- 16 أكتوبر: صدور القرار رقم 1511 عن الامم المتحدة، والذي ينص على تشكيل قوة متعددة الجنسيات بقيادة اميركية.

- 15 نوفمبر: اتفاق بين بريمر ومجلس الحكم المؤقت على جدول زمني لنقل السلطات الى العراقيين (الدستور والحكومة الانتقالية قبل يونيو 2004 والانتخابات التشريعية عام 2005).

2004

- الثامن من مارس: توقيع الدستور المؤقت.

- الاول من يونيو: تعيين الشيخ غازي عجيل الياور رئيساً، واياد علاوي يتسلم مهامه رئيساً للوزراء.

- الثامن من يونيو: صدور القرار رقم 1546 عن الامم المتحدة حول نقل السيادة الى العراقيين.

- 28 يونيو: بعد 14 شهراً من الاحتلال، قوات التحالف تسلم السلطة الى الحكومة الانتقالية، وسلطة الائتلاف المؤقتة تحل نفسها، والقادة الجدد يقسمون اليمين، وبريمر يغادر العراق.

- الخامس من يوليو: أول غارة للطيران الأميركي بموافقة السلطات العراقية على الفلوجة، المعقل السابق للمتمردين من العرب السنة.

- 15-18 أغسطس: مؤتمر وطني في بغداد لبدء العملية السياسية يعيّن برلماناً انتقاليا بصلاحيات محددة.

2005

- 30 يناير: أول انتخابات تشريعية حرة في العراق منذ اكثر من نصف قرن تقاطعها أغلبية العرب السنة ويفوز فيها الشيعة والاكراد.

- 16 مارس: اول اجتماع للبرلمان المؤقت.

- السادس من أبريل: انتخاب أول رئيس كردي في تاريخ العراق هو جلال طالباني، وتعيين ابراهيم الجعفري رئيساً للوزراء.

- الثامن من مايو: تشكيل حكومة جديدة.

- العاشر من مايو: تشكيل لجنة صياغة الدستور.

- 15 أكتوبر: مسودة الدستور الذي ينص على الفدرالية تنال تأييد 78 في المئة من الناخبين.

- 15 ديسمبر: فوز «الائتلاف الشيعي الموحد» في الانتخابات التشريعية.

2006

- 22 أبريل: إعادة انتخاب الطالباني رئيساً، ونوري المالكي رئيساً للوزراء في مايو.

- يوليو: قوات التحالف تسلم العراقيين السلطة في محافظة المثنى الجنوبية، كما تم تسليمهم 13 من اصل 18 محافظة في العامين التاليين.

- 11 أكتوبر: اقرار قانون تشكيل الاقاليم.

2008

- 11 أغسطس: العاهل الاردني عبدالله الثاني اول زعيم عربي يزور العراق منذ عام 2003.

- الاول من سبتمبر: الجيش الاميركي يسلم القوات العراقية السلطات في محافظة الانبار.

- 16 نوفمبر: توقيع اتفاقية امنية مع الولايات المتحدة تنص على انسحاب القوات الاميركية اواخر عام 2011.

- 27 نوفمبر: البرلمان يصادق على الاتفاقية الامنية مع واشنطن.

- 23 ديسمبر: البرلمان يفوض الحكومة في توقيع اتفاقات مع بريطانيا واستونيا واستراليا ورومانيا قبل نهاية السنة، و«حلف شمال الاطلسي» (نحو ستة الاف عنصر) والتمديد لبقائها حتى يوليو 2009.

(بغداد - أ ف ب)

الشرطة العراقية تحتفل بتسلم الملف الأمني في محافظة الديوانية جنوب بغداد في 16 يوليو الماضي (أرشيف)